|  |
| --- |
| المناهج النقدية الغربية السنة الثانية ماستر/مج2  ـ محاضرة ـ أ/ إدريس سامية |

|  |
| --- |
| **الاتجاه الأسلوبي**  **في**  **النقد الأدبي المعاصر** |

**تمهيد :**

تتكون كلمة الأسلوبية من " الأسلوب " style واللاحقة التي تدل على الدراسة العلمية، فتكون الأسلوبية هي علم الأسلوب أو " تطبيق المعرفة اللسانية في دراسة الأسلوب ".

**1 ـ نشأة الأسلوبية :**

تأسست الأسلوبية في بادئ الأمر على يد شارل بالي Charle Bally ( 1865-1947 ) تلميذ سوسور الذي خلفه في تدريس اللسانيات العامة في جامعة جنيف، وقد نشر في عام 1902 كتابه "بحث في الأسلوبية الفرنسية" ثم أتبعه بكتاب " الوجيز في الأسلوبية "، وتأتي أهمية بالي أنه قد تم على يديه "... و للمرّة الأولى في تاريخ الثقافة الغربية نقل درس الأسلوب من الدّرس البلاغي- بتأثير اللسانيات عليه منهجا و تفكيرا- إلى ميدان مستقل. و صار يعرف بميدان الدّرس الأسلوبي أو الأسلوبية ".

أسس بالي ما عرف بـ " الأسلوبية التعبيرية "، وقد ظهرت بعد ذلك اتجاهات أخرى كثيرة في الأسلوبية يحدد كل منها مفهوم الأسلوب من وجهة نظر مختلفة عن الأخرى .

**2 ـ تعريفات الأسلوب :**

اشتقت كلمةstyle من اللاتينية stillus وهو مثقب ( ريشة ) يستخدم للكتابة ثم استعمل للدلالة على طريقة في الكتابة واستخدام الكاتب لأدوات تعبيرية من أجل غايات أدبية .

ونوفاليس هو أول من استخدم لفظة " الأسلوب " في هذا المعنى، أما أقدم من وظفها في الأدب العربي القديم كان الباقلاني في كتابه المعنون " إعجاز القرآن "، فقد أوضح أن لكل شاعر أو كاتب طريقة يعرف بها وينتسب إليها، ومثلما يتعرف المرء على خط صاحبه إذا وضع بين عدة خطوط فإن القارئ البصير بالشعر أو النثر يتعرف على أسلوب صاحبه .

بدأ الحديث عن الأسلوب في الآداب الغربية بعد انحسار تأثير البلاغة على يد الرومانسية، فظهر ما يسمى بالأسلوب الكلاسيكي والأسلوب الرومانسي، واهتم الرومانسيون بتحديد المظهر اللفظي للشعر وظهر التفريق بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي، وبين لغة العلم ولغة الشعر، كما درست الخصائص الأسلوبية للنثر القصصي .

اختلف الدّارسون في التعامل مع الأسلوب نظرا لتعدد المدارس والاتجاهات والرؤى التي تناولته، حيث توظف كل مدرسة أدوات نظرية ومنهجية محددة، وقد صنف الباحث منذر العياشي (في كتابه " الأسلوبية وتحليل الخطاب )" تعريفات الأسلوب إلى ثلاثة أقسام :

1- التعريف الشائع الذي يعتبر أن الأسلوب هو الرّجل كما ورد في تعريف " بيفـــون"، وأيضا الأسلوب هو إرث الماضي وعطاء الإنسانية، وطريق في الكتابة لكاتب من الكتاب، وطريقة في الكتابة لجنس من الأجناس الأدبية أو لعصر من العصور.

2- تعريفات الكتاب : وهي تتوزع إلى قسمين، وذلك حسب خلفية الكاتب:

أ- القسم الأول :

يكون الأسلوب سمة أصلية من سمات الفكر الفردي. فشوبنهاور يقول عنه: أنه "مظهر الفكر"، في حين يرى " فلوبيــــر" بأنه "الأسلوب وحده طريقة مطلقة لرؤية الأشياء"، أمّا ماكس جاكوب فيقول: " الإنسان هو لغته وحساسيته". ويعرفه أحمد الشايب قائلا : " .. أن الأديب حين يعبر عن شخصيته تعبيرا صادقا يصف تجاربها ونزعاتها ومزاجها وطريقة اتصالها بالحياة ينتهي به الأمر إلى أسلوب أدبي ممتاز في طريقة التفكير والتصوير والتعبير، هو أسلوبه المشتق من نفسه هو، من عقله وعواطفه وخياله ولغته "

ب- القسم الثاني :

يكون الأسلوب في هذه الحالة أداة، ونعني بذلك، شحن اللّغة بطريقة تعبيرية مخصوصة. وهذا ما أشار إليه ماروزو حين عرف الأسلوب بأنه اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه .

3- التعريف اللّساني : الذي يركز على خواص الكلام ضمن الخطاب، وعرّفها " بييــر جيـــرو" بأنها "طريقة للتعبير عن الفكر بواسطة اللّغة".

**3 ـ علاقة الأسلوبية بالبلاغة :**

تعتبر الأسلوبية وريثة البلاغة فهي نفي لها و بديل عنها في آن، وتتلخص الفروق بينهما في النقاط التالية :

ـ البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية، ويرمي إلى تعليم مادته وموضوعه، بينما تنفي الأسلوبية عن نفسها كل معيارية، وتعزف عن إطلاق الأحكام القيمية، ولا ترمي إلى أية غاية تعليمية.

ـ تحكم البلاغة وفق أنماط مسبقة وتصنيفات جاهزة، بينما تتحدد الأسلوبية بقيود المنهج الوصفي.

ـ تسعى البلاغة إلى خلق الإبداع بوصاياها التقييمية بينما تكتفي الأسلوبية بتعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها.

ـ تقوم البلاغة في أساسها على فكرة الفصل بين الشكل والمضمون، بينما ترفض الأسلوبية هذا الفصل بين الدال والمدلول .

ـ تنحو البلاغة منحى متعاليا يفرض على النصوص في حين تتجه الأسلوبية اتجاها وصفيا تجريبيا.

**4 ـ علاقة الأسلوبية باللسانيات :**

خرجت الأسلوبية من حضن اللسانيات، وهي تسعى إلى دراسة الأسلوب دراسة موضوعية علمية عن طريق توظيف الأدوات اللسانية، حيث يعرفها ميشال أريفي بأنها " وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات"، ويقول دولاس: " إن الأسلوبية تعرف بأنها منهج لساني"، أما ريفاتير فإنه ينطلق في تعريفه للأسلوبية بأنها علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي يستطيع بها المؤلف الباث مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ المتقبل، والتي بها يستطيع أيضا أن يفرض على المتقبل وجهة نظره في الفهم والإدراك وينتهي إلى اعتبار الأسلوبية " لسانيات " تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين وإدراك مخصوص ".

ويعرفها عبد السلام المسدي بأنها "علم لساني يعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة "، ولا يبتعد عدنان بن ذريل عن هذا التعريف كثيرا حين يحددها بأنها "علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي، أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية فتميزه عن غيره، "إنها تعتمد على المنهجية العلمية اللغوية، وتعتبر الأسلوب ظاهرة لغوية في الأساس، تدرسها في نصوصها و سياقاتها .

**5 ـ اتجاهات الأسلوبية :**

مثلها مثل المناهج النقدية المعاصرة الأخرى تحولت الأسلوبية إلى أسلوبيات، نتيجة لهذا التنوع على حسب المرجعيات والبلد واللّغة، صار للأسلوبية "... اتجاه عام هو دراسة الأسلوبيات العامة، واتجاه خاص، وهو الدّرس الأسلوبي الخاص بلغة من اللّغات، فعزز هذا استقلالها – علما- من الدراسات اللسانية، ثمّ نشأت عن ذلك مدارس استفاد معظمها من الدّرس اللّساني الذي أنشأه سوسيـــر في بداية هذا القرن، نذكر منها: أسلوبية التعبير، وأسلوبية الفرد أو الأسلوبية المثالية، والأسلوبية التكوينية، والوظيفية، والبنيوية. و تفرعت هذه المدارس إلى مذاهب تدرس الأسلوب صوتا، وصرفا، ونحوا وإحصاء".

تبقى التصنيفات الأسلوبية متشعبة، وهي تختلف من باحث إلى آخر، و قد ارتأينا أن نقتصر على الأسلوبية التعبيرية التي اهتمت بالتعبير اللغوي، والأسلوبية التكوينية التي ركزت على ظروف الكتابة والأسلوبية البنيوية التي عنيت بالنص الأدبي وجهازه اللغوي.

**أ ـ الأسلوبية التعبيرية :** إذا كان سوسور قد وضع ثنائية اللغة والكلام و جعل من " اللغة " موضوعا للسانيات، فقد اعتمد الأسلوبيون نفس الثنائية لتحديد موضوع الأسلوبية في الطرف الثاني " الكلام "، وقد قام بالي بتقسيم الخطاب ( الظاهرة الكلامية ) بدوره إلى نوعين:

ـ خطاب حامل لذاته غير مشحون .

ـ خطاب حامل للعواطف و الانفعالات .

ذلك أن المتكلم حسب بالي " قد يضفي على معطيات الفكر ثوبا عقليا مطابقا جهد المستطاع للواقع، ولكنه في أغلب الأحيان يضيف إليها ـ بكثافات متنوعة ـ عناصر عاطفية (...) فاللغة في الواقع تكشف في كل مظاهرها وجها فكريا و وجها عاطفيا، و يتفاوت الوجهان كثافة حسب ما للمتكلم من استعداد فطري، وحسب وسطه الاجتماعي والحالة التي يكون فيها ". فموضوع الأسلوبية التعبيرية هو دراسة المضمون الوجداني للغة والكشف عن العلاقات التي تربط بين الشكل والتعبير الوجداني المتضمن فيه، وهو ما يصطلح عليه بالقيم التعبيرية للغة . " إن مفهوم القيمة الأسلوبية يفترض إذن وجود عدد من الطرق للتعبير عن الفكرة نفسها، وهذا ما نسميه *بالمتغيرات الأسلوبية* التي تشكل كل واحدة منها طريقة خاصة للتعبير عن المفهوم ذاته (...) وهكذا تصبح أسلوبية التعبير دراسة لقيم تعبيرية وانطباعية خاصة بمختلف وسائل التعبير التي في حوزة اللغة". وهي كامنة في كل مستوياتها.

يرى بالي أن المتغيرات الأسلوبية، أو ظواهر تعبير الكلام تظهر جليا في الكلام العادي الشفوي أثناء التواصل في الحياة اليومية، فهي " تنكشف أولا وبالذات في اللغة الشائعة التلقائية قبل أن تبرز الأثر الفني "واهتمامه محصور بالخطاب المألوف والعفوي ويستبعد كل اهتمام جمالي أو أدبي .

لكن أتباع بالي انتقدوه في تفضيله للكلام العادي الشفوي، وسرعان ما عزلوا الأسلوبية عن الخطاب النفعي وقصروها على الخطاب الأدبي، فقد طور تلاميذه هذا الاتجاه عن طريق التوسع في دراسة التعبير الأدبي فقد تحول مفهوم التعبير عند كروزو إلى حدث فني وإلى جمالية. وتتلخص مهمة النقد الأسلوبي في تقويم الطريقة التي يعتمدها مستعمل الخطاب في استخدام المصادر الأسلوبية للغة.

**ب ـ الأسلوبية التكوينية :** إذا كانت الأسلوبية التعبيرية دراسة وصفية تدرس البنى ووظائفها داخل النظام اللغوي فإن الأسلوبية التكوينية تدرس هذا التعبير نفسه ( الأسلوب ) في علاقته بالمتكلم وتبحث عن الأسباب وتقدم تفسيرات بواسطة الخصائص السيكولوجية التي يختص بها كاتب عن آخر. فقد حدد هذا الاتجاه الذي يمثله فوسلر- سبيتزر مهمته في دراسة وقائع الكلام و نقد الكتب ضمن سياقها الكلي، و قد كان يشار إليها بـ" أدب الأسلوب " أو " أسلوب النقد " .

فقد وضع ليو سبيتزر، بتأثير مباشر من كارل فوسلر، نقدا مبنيا على السمات الأسلوبية للعمل الأدبي، وقد انطلق في منهجه النقدي من الأعمال الفنية الواقعية حيث يشكل كل عمل وحدة كاملة، يرى في مركزها فكر المبدع الذي يشكل مبدأ التلاحم الداخلي للعمل . " إن فكر المؤلف ـ يقول سبيتزر ـ عبارة عن نوع من النظام الشمسي، وكل الأشياء مشدودة إلى مداره، فاللغة والعقدة إلى آخره ليست إلا كواكب تابعة لهذه الهوية "، أي لفكر الكاتب، ومبدأ التلاحم الداخلي هذا يشكل ما يسميه سبيتزر " جذره الروحي " و"المخرج المشترك لكل جزئيات العمل التي تندمج وتفسر من خلاله.

وفي مجموعة مقالات نشرها عام 1948 تحت عنوان " اللسانيات و التاريخ الأدبي " يطلق سبيتزر على منهجه في التحليل الأسلوبي تسمية " الدائرة الفيلولوجية " حين يذهب إلى أن عملية الدراسة الأسلوبية عليها أن تبدأ من "أي تفصيل في النص يلفت اهتمام المحلل، سواء لأنه يمثل انحرافا عن أنماط الكتابة القائمة أو لأنه يمتلك دلالة على العمل الأدبي ككل"، إن الخطوة الأولى في نظر سبيتزر" خطوة حدسية " يربطها المحلل بانطباعه على مجمل العمل الأدبي ، أو بشعوره حياله ، مما يضفي به إلى تعديل ذلك الانطباع، ثم يرجع المحلل بحرمة دائرية ( رحلة الذهاب والإياب ) إلى تفاصيل أخرى بغية ربطها بالانطباع العام لكل عضوي، وبذلك يتوصل المحلل إلى الأصل الروحي المشترك وإلى الجذر السيكولوجي لتعدد مزايا النص اللغوية.

**ج ـ الأسلوبية البنيوية :**

وضع " ميشيل ريفاتير" كتابا عنوانه " مقالات في الأسلوبية البنيوية " عام 1971، وهو يرى، خلافا لما ذهبت إليه الأسلوبية التكوينية، أن الأسلوب خصوصية من خصوصيات النص فلا وجود للأسلوب إلا في النص، ويعمل على إسقاط وعي المؤلف من دراسة ظاهرة الأسلوب لأنه لا يفيد إلا في حالة دراسة كيفية توليد الأسلوب، لكنه لا يشرح ظاهرة الأسلوب نفسها.

يعرف ريفاتير الأسلوب بأنه: " إظهار عناصر المتوالية الكلامية على اهتمام القارئ "، وهو يولي أهمية خاصة للقارئ في الكشف عن الأسلوب، "إن القارئ يجلي الأسلوب بفعل الأثر الذي يتركه، فالأسلوب يستأثر بانتباه القارئ واهتمامه عبر ما يفضيه في سلسلة الكلام، والقارئ يستجيب بدوره للأسلوب فيضيف إليه من نفسه عن طريق رد الفعل الذي يحثه فيه. " يتبنى ريفاتير منظورا تواصليا يمنح فيه القارئ دورا حاسما بعدما تنقطع صلة النص الأدبي بمنتجه. فالملامح الأسلوبية مرتبطة ارتباطا وثيقا بإدراك القارئ لها، وإن كان ريفاتير يشترط في القارئ التعاون مع النص، ويجعل ردود فعله نتيجة للمثيرات التي قصد المؤلف بثها في نصه، بمعنى أنه يجعل أهمية دور المتلقي ليست مفروضة من الخارج بقدر ما هي اختيار استراتيجي للمرسل الذي يريد فرض طريقة معينة لتفكيك رسالته من قبل القارئ، إلا أنه على هذا الأخير تقع مهمة تحديد الوحدات الأسلوبية في النص، فالأسلوب واقع في سياق تفاعل القارئ مع النص .

إن قوام التحليل الأسلوبي للنص- عند ريفاتير- هو القارئ، فهو الذي يضع يدي المحلل على "أدبية " النص الأدبي، حيث ينطلق من النص الذي هو صرح مكتمل ينبغي تتبع سمة الفردية فيه. وهذه السمة الفردية هي الأسلوب، وهي بالتالي أدبية النص.

بهذا يختلف التحليل الأسلوبي الذي يعتمده ريفاتير عن التحليل البنيوي الذي يفترض (بنية) كبرى للنص، ثم (بنيات) صغرى، تقوم بينها (علاقات) تنافر وتضاد أو تشابه ومماثلة... وهذا لا يعني أن تحليله الأسلوبي لا يعتمد على تقسيم النص إلى (وحدات)، فهو يفعل ذلك، ولكن الوحدة البنيوية لا تتطابق مع الوحدة الأسلوبية لأنها تندرج ضمن الحدث الأسلوبي وتتحدد وفقه .

**6 ـ الأسلوبية و مفهوم الانزياح :**

تنطلق الأسلوبية من اعتبار النص الأدبي تصرفا في اللغة مما يجعل هذا النص منخرطا بجدارة ضمن التحليل اللساني ولكن الوصف اللغوي الخالص للعمل الأدبي سيبرز جميع العناصر اللغوية في وصفه ويوضح مكوناتها و وظائفها دون أن يحدد المعايير الناجعة لالتقاط الوقائع الأسلوبية دون غيرها .

لطالما اعتمد الأسلوبيون على مفهوم الانزياح لحل هذه المشكلة، حيث يفترض بالي درجة صفر للتعبير تشكل مقاطع الكلام العادي انزياحا بالنسبة لها، أما تودوروف فإنه ينظّر للأسلوب اعتمادا على مبدأ الانزياح فيعرفه بأنه " لحن مبرّر" ما كان ليوجد لو أن اللغة الأدبية كانت تطبيقا كليا للأشكال النحوية الأولى، ومجال الانزياح بامتياز هو المستوى اللانحوي للممارسة اللغوية. أما جون كوهن فيرى في كتابه " بنية اللغة الشعرية " أن الانزياح شرط ضمني لتوفر الشعرية في النص الفني حيث يكون " خرقا للنظام اللغوي المعتاد وممارسة جمالية، وهو يتم عبر مرحلتين :

ـ مرحلة طرح الانزياح، وفيها يتم مخالفة القواعد النثرية و تكسير بنيتها التركيبية والدلالية والصوتية.

ـ مرحلة نفي الانزياح، وفيها يتم إعادة بناء الجملة من جديد كي تستعيد انسجامها وملاءمتها.

اتخذ كوهن في البداية من النثر، باعتباره اللغة السائدة معيارا ينزاح الشعر عنه، لكنه ما لبث أن استبدله بمعيار منطقي دلالي، مع ذلك بقي النقد الرئيسي الموجه له هو اعتماده على معيار خارجي.

يطرح مفهوم الانزياح، إذن عدة صعوبات خاصة فيما يتعلق بتحديد المعيار الذي يتحدد الانزياح وفقه، ومما يؤخذ على نظريات الانزياح "إهمالها للسياق و للعلاقات المتغيرة من نص إلى آخر، فالصور الأسلوبية في اللغة الأدبية ينبغي أن تقيم في سياق العمل الذي وجدت فيه، والعناصر المثيرة للانتباه تكون كذلك بالنسبة للقاعدة التي يأخذ كل نص في فرضها نظرا لصعوبة تحديد مفهوم لمعيار أو قاعدة يصلح لكل نص.

من هذا المنطلق يطور ميشال ريفاتير تصورا مختلفا لمفهوم الانزياح يقوم أساسا على استبدال المعيار الخارجي بمعيار داخلي ـ إن صح التعبير ـ هو مفهوم " السياق الأسلوبي " حيث يعرف ريفاتير الأسلوب بأنه "إظهار عناصر المتوالية الكلامية على اهتمام القارئ"، و ينصب التحليل الأسلوبي على التغييرات التي تميز المتوالية ويدركها القارئ حيث تتجلى الأسلوبية في التأثير المفاجئ واللامتوقع الذي يحدثه عنصر معين بالنسبة إلى عنصر سابق في السلسلة نفسها. فالأسلوب، إذن، هو "البروز الذي تفرضه بعض لحظات تعاقب الكلمات في الجمل على انتباه القارئ " إما عن طريق خرق القواعد أو اللجوء إلى ما ندر من الصيغ." وباختصار فإن اللغة تعبر و الأسلوب يبرز ".

**أهم المراجع المعتمدة :**

ـ بيير جيرو : الأسلوبية ، ترجمة : منذر العياشي .

ـ إبراهيم محمود خليل : النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك .

ـ عدنان بن ذريل : النص و الأسلوبية بين النظرية و التطبيق .

ـ محمد عزام : تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية